من

كتاب البرق الشامي

للعماد الأصفهاني الكاتب

ودخلت سنة ثلاث وثمانين

وهي السنة المحسنة ، والعام الذي عامت بـه في بحـار الانعـام بالاخلاص والحمد القلوب والالسنة ، والزمان التـي تقضـت على انتظار احسـانه الازمنة ، والعصر الذي أحسـنت بـه الأمـة المؤمنة ، وظهـر فيه المكان المقـدس الذي سـلمت لسـلامته الأمكنة ، وخلصت بمنحة الله من المحنة الأرض المقدسة الممتحنة • وتمكنت من رقـاب أعداء الله بـه الأسـنة بـأيدي أوليائه المتملكة المتمكنة ، وتبسمت من غرار الغرور باحتباء حبرات الحبور الاجفان المتوسنة .

وفي هذه السـنة نزل نص النصر ، وكفـت كف الكفـر ، وعلت اعلام الأسلام ونفذت احكام الاحكام ، وكفى الله شر الشرك وحكم على دماء الكفرة واسارهم بالسفك ، والهتك ، وتمكنت فيهـم ايدي الأيد بالفتك ، وضاقت بهم رحاب الملك ، وطمـت للدين بـالسواحل بحـار الملك ، ونصرت الدولة الناصرية ، وخـذلت الملة النصرانية ، وحق الاعداء بالحق ، ودخل من قر فوق الأمرة من تلك الأسرة تحـت الرق ، وطـالت الوية الأولياء ، وسـالت أودية الاوداء ، ونال الأحمـاء فضـل رب السـماء ، وتجلت مـذاهب النعماء ، وظهر سر السراء ، وتميز الطيب مـن الخبيث ، وانتقـم التـوحيد مـن التثليث ، ودنت للدين اعانة العين ، واغاثـة المغيث ، وشـاع في الدنيا بمحـاسن الأيام الصـلاحية حسـن الأحاديث ، وبلي الفرنج الفجرة بما أثاروه وأثـروه في البـلاء مـن التأثير والتأريث ، وأحسوا من المصيبات التـي فجـأتهم فعمتهـم بالكسر الكريث ، وافتضت بالذكور اليمانية في الحرب العوان الفتوح الابكار ، وحلبت هدى الهدي ، في ندى الندي ، وحليت بحلى الحلي وتليت الاذكار ، واعترف من عادته الجحـود وأقـر مـن دأبـه

الانكار ، وملكت من معاقل الكفر على من باض فيها وفرخ الأوكار ، واعترى ليلهم يوم الاعتراك الاعتكار .

وتناهت بالفتوحات الممنوحات في هذا العام عشي ايامه والابكار ، وكانوا كما قال الله تعالى :« وترى الناس سكارى وماهم بسكارى » فباله ذلك العذاب الشديد والاسكار ، وقد وصفت في الكتاب الموسوم بالفتح القدسي هذه الأحوال ، ووسعت ووشعت الأقوال ، وحليت الفتوح ، وأمليت الشروح ، وأهديت المذوح ، ونفخت في أجسام تلك الأيام باحياء ذكرها الروح

وأنا أورد في هذا الكتاب مما أوردته جملته الجميلة وجلالته الجليلة ، وحالته الحالية ، وقيمته الغالية ، وفضيلته الفاضلة ، وعدالته الشاهدة وشهادته العادلة .

ذكر مقدمة لذلك مباركة ومكرمة من لطف الله متداركة .

كان السلطان قدم الكتب لاستقدام الكتائب واستدعت الغرائب بالرغائب وقرب جنحية الأقارب والأقاصي . . . ... مظهرات مكرماته والجوهم على عادات علاء عداته (١) . ... وسمات حسناته ، وواصل الموصل بالبر البري من المر ، وسنجار استجرى المذاكي الخلية الوهن ونصيبين للأسعاف نصيب الأسعاد ، وأمد ديار بكر بالامداد بعد الامداد ، واستدعى عساكر ممالك الشام من الأطراف والأوساط ، وأمرهم بالاحتياط ، وصانهم للاقتصاد في القضم من التفريط والافراط ، وبرز من دمشق يوم السبت أول محرم في العسكر العرمرم ، والعزم المصمم للفرض المحتم والرعب الى العدو والباس المقدم ، ومضى بأهل الجنة بالجهاد الى أهل جهنم ، فلما وصل الى رأس الماء (٢) اتخذها مذبع نحو الهيجاء ومضمار خيل الاجراء ومثار العجاج المكرر على نهار الروع ليل

الظلماء ، وجعلهـــا مـــطلع فلق فيالقـــة ، ومحيط مضـــارب سرادقة ، ومجال رواعده على بـوارقه ، ومجـر ســوابغه مجـرى سوابقة ، ومجمع جموع خلائقه ، ومحمى حماة حقائقة ، ومحشر معاشرة ، ومربض آســاده وقســاوره ، ومخيم جيوشــه ومجثـم عساكره ، وأمر ولده الملك الأفضـل نور الدين عليا بـالاقامة هناك ليستدني اليه الأمـراء الواصـلين والامـلاك ، ويجمـــع الأعراب والأعاجم والأتراك ، ويداوم لما... (٣)فرط الاستدراك ولايفارق لما يلزمـــه الاحـــاطة بعمله الادراك ، ويضـــم لمجمـــع الاجناد الاشتات ، ويجم لموسم الجهاد الأوقـات ، وســار الســلطان الى بصرى ، وخيم على قصر الســلامة ، وقـــد اســـتقبل مـــن الله الكرامة ، والاستقامة .

ذكر السبب في ذلك

وقد سبق ذكر غدر ابرنس الكرك • وفسخه للهدنة • واعتمـاده من قطع الطريق واخافة السبيل كل مافي المكنة • وهـــو على طـريق العسكر المصري والحـــاج • شـــديد الالتجـــاج • وفي بحـــر اللجاج • وكان في الحج حسام الدين محمـــد بـــن عمـــر بـــن لاجين • ووالدته اخت الســـلطان مـــع جملة مـــن الخـــواص المقربين ، وأقـام الى تلقـي الحجيج • واسـتقبل محيا لقـائهم البهيج • وريا رؤاهـــم الأريج • وخـــلا مـــن منعلم سره • وتجلى لبشرى سلامتهم بشره • وذلك في آخر صـــفر • ووجـــه صـــباحته لاسفار صبيحة الظفر سفر • ثم لما فـرغ بـاله • جـم الى الكرك استقلاله • وتقدم بمن معه من العســاكر حتـى نزل على حصـــنها نزول الحـــاص الحـــاصر • وأقمنا هناك نرعد ونبـرق • ونوقـــد ونحرق • ونرمق ونومـــق ، ونهـــرق ونزمـــق ، ونغـــرب ونشرق ، ونضايق ونضـــيق ، ونجمـــع البـــلاء على تلك البـــلاد ونمزق ، حتى اجتثت أصـــولها وفـــروعها ، واســـتأصل كرومهـــا

وزروعها ، وقطع ماوجده من لينة ، وأذهب ماراقه من زينة ، وفرى وقرى وفصم العرى ، وابسط الذرى ، وهجم على ظهر الثرى ، وحلب حر النجح هدى ، وشب الشوبك نار الوعيد باشارة رأس الوليد ، وقطف ثمر النصر من ورق الحديد ، ووصل العسكر المصري متصل المدد ، محتفل العدد والعدد متضح الجد والجدد ، ومضطرم للهام ، ملتهم للضرام ، ملتهب الجمر ، ملتهج الجمع ، آخذة بوارقه وروا عده ، بالبصر والسمع ، فقوي الاستظهار واستظهرت القوى ، وساقت وراقت مزاينه المجلوبة ومحاسنة المجلوة ، وأقمنا على الحالة الحالية والجلالة الجالية ، والمهابة المرهبة ، والمحبة المرغبة .

ذكر ظفر السرية التي بعثها الملك الأفضل وعودها بالنصر الأكمل والغنم الأجزل .

أما الملك الأفضل فانه اجتمعت عنده الجنود من كل فريق ، وأتوه من كل فج عميق وضاق بوفودهم الفضاء ، وفاض بوفورهم القضاء ، واجتمع من دجى عتيرهم ومشى بنورهم الظلام والضياء ، واشتبكت الأرض والسماء ، وطفا على بحار الرحاب من القب والقباب الحباب ، وطما بأمواج العوامل وأفواج الجحافل من الكمت والكماء العباب ، وانقضى من السنة شهران ، وطال بهم انتظار السلطان ، والدين يتقاضاهم بدينه ، والكفر يتحاماهم على حينه ، فرأى الملك الأفضل ان يشغلهم بغزوة يعودون منها بحظوة ، فأنهض منهم سرية سرية نخية على ذوي البسالة والبأس والشدة والمراس ، ورتب علي خيل الجزيرة ومن جاء من الشرق وديار بكر مظفر الدين كوكبرى صاحب حران الأغلب الأعز ، وعلى عسكر حلب والبلاد الشامية بدر الدين دلدرم بن ياروق • وهو الذي بحماسته يرتق من الاسلام بالفتوح الرتوق • وعلى عسكر دمشق وبلادها صارم الدين قايماز • وهو يفوق عضاء مضاربه الصارم

الهرماز والعضب الجراز • فأسرجوا الخيل • وأدلجوا الليل . وجروا من السابريات النيل • وأجروا من الأعوجيات السيل • وجلبوا الى العداة الويل • وصبحوا صفورية في أواخر صفر • وصباح النصر قد افتغر • فخرح اليهم الفرنج في حشود جهنم وريوديلملم • وجنود ابليس واسود تحمي العريس.

وسراحين على سراحيب • وأهاضيب تتحلل أهاضيب • وتعتقل انابيب وتشتمل شآبيب • في الداوية بأدواتها • والاسبتار بأسوائها • والبارونية بلاوائها • والتركبولية وأربيائها • والفرنجية بضرضائها • ووثبوا في وثبات الآساد • وحملوا في ثبات الأجواد • فلولا ان الله قد اصحب اصحابنا التوفيق وهدى أهل هذه الطريق • لكاد الكفر ينجو والاسلام لايعتز بالأجر • لكن أمرائه الكرام استطابوا الحمام • فلاقوهم بقلوب الصخور • وحبور الصقور • وباشروا بصدورهم صدور الأسنة • وغامروا بنحورهم نحور الأعنة ، فأتاهم الله النصر المني ، والظفر السني ، وسقوا منهم حنين الحنايا • وأدركوا فيهم منى المنايا • وفازوا وظفروا • وحازوا وانتصروا • وقتلوا وأسروا • وهلك مقدم الاسبتار • وحصل جماعة من فرسانهم في قبضة الأسار • وعادوا سالمين سالبين • غانمين غالبين • وقد كبسوا وكسبوا • وسحبوا ذيول الاختيال بصدق ماحسبوا • وكانت تلك الذوبة الحلوة • والخطوة الصفوة • باكوره البركات • ومقدمة مابعدها من ميامن الحركات • واندرج ان الله يعلي لأوليائه الدرجات • ويسوق زمر اعدائه الى الدركات • وجاءتنا البشرى ونحن في نواحي الكرك والشوبك ندور ونجول • ونجور ونثور وعلى الأعداء منا الدحور والثبور • فلما قرأنا الكتب بالاستنهاض والانبجاث حللنا حبلى اللباث وعقدنا عزم الانبعاث • واستمهلنا مهول الأوعاث .

ذكر الاجتماع بالعساكر .

وعدنا واجتمعنا بـــالعساكر ، وانتـــظم عمـــــــل الأوائل والأواخر ، وخيمنا على عشترا ، والقـدر يقـول للســلطان تعيش وترى ، وقد غصت بخيل الله الوهاد والذرى ، واشـتمل المعســكر على فراسخ عرضا وطولا ، وملأ بالملأ حزونا وسهولا ، فما يرى الا خيل صفون رحض كأنهـا حصـون ، وزعف مـوضون ، وعضـب مســذون ، وفيض مـــكنون ، وحـــركة وســـكون ، وركوب وركون ، وجنات وعيون ، وفلك في بحـر مـن العســكر في البـــر مشـحون، وضـاقت الأيام عن عرضـــها ، وتقـــاضت الليالي بقـرضها ، ونزلت جنود سـمائها الى جنود ارضـــها ، فالمقـانب مناقب، والمواكب من الخرصان كواكب ، والكتائب من الشـجعان مناكب ، والذوائل ذوائب ، والعصب من البيارق عصـائب ، والريح سحائب ، والوهج مشارق ومغارب ، والمراكب مراقب والسـلاهب جنائب .والحقائق حقائب، والمواهب مـذاهب ، وفي كل يوم انفـاق وارقاد وارفاق ، واشراف واشراق ، واعتـلاء واعتـلاق ، واعتناء واعتناق ، واجتمـاع لاافتـراق ، وانطـلاق واندلاق ، وامتـــراء وامتراق ، وايلاف وائتلاف ، واستباق والتحاق ، واختفـاق مـن ألوية الأولياء واصطفاق ، وضمر وعتاق ، وسمر ودقـاق ، وبيض رقاق ، وعطاء حساب ، وكأس من الجود دهاق ، وعرض العسـكر في اثني عشر الف مدجج ، في ليل العجاج مدلج ، يشـتمل على عدة جنائب اسعاد أتت في الجري شمائل ، وجنائب سواغب تجري بهـا الرياح ، ورمـاح شـــيلها المراح ، ورواسي ســـــواري ، وأعلام جواري ، من كل كاف بلام ، وراء لعين حمـام ، وضـارب بضرام وهام لهام لهام ، وضلغم ضرغام ، ومصمم بصمصام ، وحـاسم بحسام ، ومقدام لهمام قمقام ، وفارس للأسـد فـارس ، وللروع ممار ممارس ، وللصبح بما يثيره حابس ، وبـاشر بـالكريهة غير عابس ، قادح لسنا السنابك قابس ، مناف لعداة الاسـلام في الدين

منافس ، وكل مجاهد بسر الصدق مجاهر ، ومظافر لأولياء الله مظاهر ، ولمعاشر الحق معاشر ، وباسل للبأس باسر ، وللفتخ الكواسر كاسر ، ولكأس النجيع حاس وعن ساعد الجد حاسر ، ناصب لنصرة الدين ماله غير الله من ناصر .

ذكر الدخول الى الساحل للقاء الفرنج ، وكان الرحيل يوم الجمعة سابع عشر شهر ربيع الآخر

ولما انقضى العرض . اقتضى الفرض . وسالت بأفلاك السماء الأرض . والتطم البحر . والتم الجمع ، والتهب الجمر . واضطرب المجر . واحتبس الفجر . واقتبس الأجر . وقربت الضمر . وبرقت البيض والسمر . وردت بالردى العداة الزرق المنايا الحمر . ونشرت للأواء بني الأصفر الألوية الصفر . وراقت لنضرة ثمر النصرة أوراق الحديد الخضر . وأنارت بالأيامن الغر الأيام الغبر . وتمكن في قلب الكفر من بأسنا الذعر . وانصف الدهر . واسعف النصر . وكان السلطان قبل يوم رحيله . وعزم الجهاد لله في سبيله . اركب العسكر بعدته وعدته . وحديده وحدته . وبيضه ومجره ولجبه . ورتبه اطلابا . وحزبه احزابا . وعين رجال القلب ومن يقف بالقرب . والميمنة وحماتها . والميسرة وولاتها . والجناحين وقوادهما من ذوي الاقدام . والمقدمة والساقة على سنن النظام . وعين مواقف الرجال ومواضع الأبطال . وعين الجاليشية من كل طلب ورماة احداقها وحذاق رماتها . وعين لكل امير موضعه . ولكل منير مطلعه . ولكل اسل مركزه ولكل سحبل منهزه . ولكل أسد عرينه . ولكل قرن قرينه . ولكل جحدم مقامه . ولكل مرام مرامه . ولكل عازم مذهبه ولكل حازم موكبه . وقرر مظانهن في الركوب والنزول والثبوت والحلول . ومعارج الصفوف . ومدارج الزحوف . ومناهج الحتوف . ومخارج المئين . وموالج الألوف .

وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر بالعساكر . والأسد القساور . والفتخ الكواسر . والقضب البواتر . والفلك المواخر . والسحب المواطر . والسحم الدياجر . والحمس الزوائر . والغر السوافر . والبيض الزواهر . والسمر الشواجر . والبيض المغافر . والقوم المعاشر . والبياد والحاضر . والخف والحافر . والصلب والمساجر . والأكارم والأكابر . والساعي والسائر . والعالي والفاخر في عاديات سفره . رعن الرعن لعاديات كفره . حزن الحزن وهى . مفاوير هدى . دان لها التقدير الخمائر عدى . دنا منها التدمير . وسارت على ترتيبها وتعبئتها وتذكيبها وتذقيبها محشورة عصائبها منشورة ذوائبها . سائلة أوديتها . جائلة ارضها . فهي تخرق الخرق . وتغرق الغرق على الفرق . تملأ الوهاد بهوائها . وتكلأ من العوادي بعواديها . وأناخت ليلة السبت على خسفين والكفر مخسوف . والشرك مكسوف . وكل جبل بلجبها مذسوف ونسيم النصر من قوتها مسوف . وللاقدام في لج الاقدام رسوب ورسوف . وللدين في فضله وعدله وللكفر عسوف . وباتت تلك الليلة والرماح مركوزه والصفاح مهزوزة . وللمقربات تصال . وللمضروبات صقال . وللمنسوجات اجراء . وللشريجيات اغراء . وللعوج رنان . وللأعوجيات رهان . وللقساطل اقساط . وللصواهل أصوات . وللسلامة امراط . وللاستقامة صراط . ولأوراد المنايا فراط . ولأقطار الجو من جوانب الأسنة اقراط . ولحكم الظفر من مقتضيات القدر مناط . وللقيام اشتراط . وللقتاد اختراط ، وللعسكر بساط . وللعثير اضباط ، وللهمم اعباط . وللدهم ارتباط . وللبهم اختباط . وللأمم احتياط . وللعزم نشاط . وللحزم يشاط . وللغماغم اختلاط . وللصوارم اشتطاط . وللنجم مماط . وللأفق منه سماط .

فلما بكروا ركبوا وكبروا . واخذ بحرهم في الالتجاج . وبرهم في الارتجاج والجو في الارتياج . والدو في الامتراج . وقلب الكفر في

الانزعاج . وجند السماء والأرض في الامتزاج . والصبح في الانبلاج لولا معارضة العجاج . وخضرم الخضراء من غبرة الغبراء ذو الأمواج والأفواج . وتلتها افق العجاج . وقوس التراك لامعة في الأبراج . ومضايق الزحام داعية الى الانفراج . والأسد سابحة في غاب القنا الى الهياج . وأجنة الحنايا مشرفة على الاحراج . وأسنة المنايا مشرعة للانشاج . وأعنة السرايا مسرعة للادلاج . وليل الخيل داج . وطرف الغزالة ساج . ورعب الجيش يخامر الدهر شاج . وذقود الرواحل من عقود الرواغب في رواج . والشوارع نازعة لالجاء واسراء من الجام واسراج . ونزلوا بثغر الأقحوانة حروض راء . وعقد غير واء . وعزم غير باء . وعز متباء ، وسعد متناء . وحكم أمر ناء . وعيون ذات اسباء . ووجوه نضر ذي اتجاء . ومضاء للفضاء مضاء . وشفار بيض لها مع الأعداء شفاء شفاء . وضربت الخيام . وغصت الوهاد والآكام . واشتد الغرام . وامتد الضرام . ووجد بالجد العرام . وتقدمت المساعي وسعت الأقدام . وعلت الأعلام الأعلام . وزها الاسلام . وأمكن من الكفر الانتقام . وحمي للتحزب الحمام . وشد للتخرم الحزام . وأقام الطيف . وطاب المقام . وزاد في الكف اكفاء الكفاح مراح الرماح . وتصافح الصفاح . وعرف كيف ركوب الجبال للرياح . ووعدت الظباء الظلماء بإروائها من الأرواح .

وأقام السلطان هناك خمسة ايام الى يوم الخميس . في ذلك الخميس بضراغم الخيس . وقساور العريس . وبنات قواعد التأسيس . وأساة المضايق بالتنفيس . وحماة الحقائق في طوري الايحاش والتأنيس . وولاة الفيالق المباشرة بالبشر يوم التعبيس . ورماة المآزق في ادارة العذاب البئيس من بلاد الشرك بدار الدربيس . واقتداح زناد الأفراح . وانهاض جناح النجاح . الى ارداء اهل الجناح . وكيف وأين ومتى يكون اللقاء . وهل يفترق الأحباب . وقد اجتمع الأعداء . ثم صممنا

العزائم على تثبيت الأقدام للاقدام . وسلب لبس السلامة من ملابس عداة الاسلام .

ذكر ما اعتمده الفرنج

أول ما سمع الفرنج باجتماع كلمة الاسلام . ووصول امداد العساكر المصرية والجزيرية الى الشام فرغوا من هجوم حين حينهم . وشرعوا في اصلاح ذات بينهم . وزحفوا عن التغاير والتنافس الى التضافر والتوانس . وقالوا :نحن انصار النصرانية . واصلاب الملة الصليبية . وقيام القيام بها . وعصب العصبية . وعمدة المعمودية . وداروا بدر افاويق الوفاق . ونزعوا الى نزع شقق الشقاق . وأثار القوم صلح القومص (٤) ووصلوا على مرابه مطلع امانيه بالمخلص. ثم تزاوروا وتوازروا. وتضافروا وتظاهروا . وحشدوا وحشروا . ونصروا واستنفروا . والتأموا واشلاموا . وتذمروا وتذمموا . وتخطوا وتورطوا . واخترموا واخترطوا . واشتطوا وافرطوا . وندموا على ما فرطوا . وخطبوا وخبطوا . وامتزجوا واختلطوا . وقبضوا وبسطوا وقسطوا وفي ايديهم اعطوا . وجمعوا عبدة الناسوت واللاهوت . ورفعوا صليب الصلبوت . وثار اليه كل ملتاح الى الثأر مرتاح . الى النار دار باللجب الجرار . وار يفلح الأوار . ضار بلا ضرار . مستمر مع اسرار . غمر من الأغمار . وكل مغو مغوار . وباد بادبار . وناز بزنار . وكافر فجار . وناكث غدار . وباسل ذي بأس ° وفارس للأساد فراس ° وداوي داء خبيته عضال ° واسبئاري له دون تباره نضال . وباروني يبارى البوار . وتركبولي لا يترك الغوار ، وينزع النزاع الى الاوتار الاوتار . وكل متدرع بجلد أرقم يهز أفعوانا . وكل شيطان يجر لهتخ ماء الأرواح أشطانا . وكل متميز في الوغى متمرن على الردى مترنم . بصليل الظبا مترنح . بكعوب القنا متوقح . بضراورة الشر على ضاربي الشرى متوقد . يغض

الجمع الجم كأنه حمر الغضا . مقتحم للطبيعة النارية شواظ لظى . ضرب كالعضب المنتضى . تنحت كالشبا . وكل جحيمي جاحم . وضرامي ضارم . وجهنمي بجهامة . وممتري بصرامة . وناري يلفح . وحجري يقدح . ومارد مارج . وصرف الشر ممازج . وسعري ذي استعار . كأس من عار . حاس من دم جار . عاس على العجم جاس في الهجم . خاس في الرجم . قاف اثر الغي . كاف بعين البغي . جاف على الذشر والطي . حاف في الزعف راد بالزحف . ساق بالحتف .ناصب بالفعل جازم بالحذف ، وشارب نجيع شار ، وضريب قريع ضار ، وكل مجترم مجترح محترف للموت مقترح ، حقيق بالروع مصطبح ملتفع ملثم القطوب ملتفح مصطلم لثلم الخطوب مصطلح ، وكل ذي فضفاض وسابغ ونضناض لادغ ، وعاو زائغ ، وعار في الدماء والغ ، وسالب باسل ، وطالب باطل ، وعامل ناصب ، وعاسل لاسع بعاسل ، وكلب نابح وثعلب ضابح ، وسرحان سارح ، وذئب جارح ، وزرق تمتش بزرق الأسنة ، وشقر تعبي الشقر بصرف الأعنة ، وكل رامح رام ، ونابل ناب ، وراحض عاب ، وحاضر غاب ، ومرتكب كبائر ، ومرتبك جرائر ، ومبتكر جرائم ومشرك عظائم رئبال ، وأمعط مفتال ، وأمرط ضال ، فعاموا في بحر العمى ، وحاموا من الردى حول الحمى ، وغاروا للاقتحام الوغى ، وأصحروا بصحراء صفورية في غيل القنا ، وطلبوا في نهج المنايا نجح المنا ، ومشوا الى المداناة ، ونأوا عن الونى ، وطمى سيل خيلهم على الوهاد والثرى ، ودب راجلهم كرجل الدبا ، وحلوا لحب الموت الحبا ، وقال الظلال في ظلام العجاج ، وضاق الفضاء عن مجال الضحضاح ، وبدا خرق الصبح فوقى الذقع بالوقع ، وشكا الثرى الى الثريا من الحواجر الحوافر شدة الوقع ، واحتابوا مواقع واجتنبوا سوابق ، والمعوا والبوارق ، وأسمعوا الصواعق ، وقربوا السوابق ، وأبعدوا الخوانق ، وحملوا الطوراق الطوارق ، وشبوا نار الفرق ، وأشابوا المفارق ، واعتقلوا القنطاريات قناطر العبور العير ، وانتزوا لحماية

السلب في العوامل كعاسلات النحل مسدساتها بالأبر ، وطال الشر وطار الشرار ، وشق الأمر ، وسقت المرار ، وأخضرت الغبراء من الحديد ، واغبرت الخضراء من الصعيد ، وساحت السيول ، وسالت الشعاب ، وتغايضت البحار ، وتضايقت الرحاب ، وتموج بضراغمة الغاب ، وأرعبت ايماض البروق واصعاد الرعود ، فالكفر منهم ظلمات بعضها فوق بعض ، وختام القتام بالفضاء في فض ، وغدران الغران في فيض ، والنجوم في انقاض ، والرجوم في ارفضاض ، والذوابل في ارتفاض ، والعوامل في ارتعاض ، والعواهل في اضطراب ، والصواهل في اصطخاب والجيش شاك ، والعيش شاك ، والاشراك ناصب واشراك وخاطب ادراك ، وطالب بوار ، وحاطب ليل خسار ، وثائر ثار ، ونيران المذاكي مذكي نار .

عاد الحديث الى افتتاح السلطان بفتح طبرية وذلك عشية الخميس ثالث عشر ربيع الآخر وذكر المشاورات

ومازال السلطان لله مستخيرا ، وبعونه مستجيرا ، ولأعوانه مستشيرا ، فأشار الأمراء ذووا الآراء بالصدود عن اللقاء والمحافظة على نضار الاسلام بصون الذماء وحقن الدماء وقالوا : لم يسبقك أحد الى مضايقة القوم ، ومحاققة المزم في الرقم ، ومابلغ الأملاك قبلك الا مابلغت ، ولم يريغوا من هذا المراد ماأرغت ، وهذه جمرة الاسلام ، ونخبة رجال الشام فلا تغركم تذقال المعركة ، ولاتلق بأيديهم الى التهلكة، وهذه بلادهم قد خلت منهم، ونأت بقربهم ضياعهم ، فذشتغل بالاغارة على بلادهم الخالية ونقدم بأقدامنا عطل احوالها الحالية ، ونرجع بالغنائم والسبايا والمرباع والصفايا ، ومانزال نزيدهم حتى نضعفهم بامداد البلايا ، ونخلص من اذسانهم عاجلا أو آجلا ، بالقود والسبايا .

فقال السلطان : ان الأيام غير مأمونة ، والأعمار غير مضمونة ، والجهاد فرض فرضه رسل الله في أرضه وسمائه ، وندبر بطوله وعرضه عرضه ، ولابد من هذا اللقاء أما وإما وإن الله اصدق القائلين :« ولينصرن الله من ينصره » فقالوا : خصك الله وأفردك بهذه الفضيلة ونجح الوسيلة ، وحيث استخرت الله في الاقدام فانا نبذل المنح بين يديك للاسلام.

فلما أصبح يوم الخميس • سار الخميس • وزحف بأسده العريس.وطلبت اطلاب احباب لآله لقاء الأعداء • وجرت السوابق على الأردن أرديان الوديان في الاجراء.واعتضدت أملاك الأرض بملائكة السماء • ولوت أولياء الله على العدى ألوية اللأواء • ورمدت عين الفلك من ملابسة الأقداء • وحارت غزالة الفلق من أسد الفيلق• وتقيد عنان الجو من عنان الجواد • ولاح سنا الموت الأحمر في السنان الأزرق • وأشرف على الفرنج في معسكرها العسكر • وقام الحشر • وعاث العير • وماج البيض والسنور • ومار المورد والمصدر • وغام اليوم الأغبر.وراغ الحديد الأخضر • وراق الأبيض والأسمر • ووقف مع المثير المعشر • وحال المغيث وهال المحضر • وهاب المنظر والمخبر • وظهر الحق وحق المظهر • وارتفعت الأصوات بقول :« الله الأكبر » فلو برزوا للمصاف لطالت عليهم يد الانتصاف لكنهم ربضوا وماذبضوا • وقعدوا وما نهضوا وأخلدوا الى الأرض • وشدوا نواجذ العض • ولم يدعوا مرابضهم في ذلك المكان • ولم يشيموا ما في الأجفان • وثبتوا ونبتوا ، وسكنوا وسكتوا • وأشفقوا في البروز من الخطر • وفي الخروج من الغرر • وحذروا من القدر لو دفع القدر بالحذر .

فلما عرف السلطان أنهم لايبرحون • ومن قرب صفورية لاينزحون وأنهم لايهيجون الى الهياج • ولايخوضون معه بحر العجاج • أمر أمراءه أن يقيموا على مقابلتهم • ويذموا على عزم

مقاتلتهم • ونزل هو في خواصه العبسية على مدينة طبرية • وعلم أنهم اذا علموا بنزوله عليها بادروا بالوصول اليها • فحينئذ يتمكن من قتالهم • ويجهد في استئصالهم • فحضر طبرية وحصرها • وابتدأ بها وابتدرها وجمع الرجال على أحد أبراجها وأخلاها مما حمى أهلها من أعلاجها • فوقع ذلك البرج • وانتزح عنه الفرنج • ونصبت عليه سلالم الاسلام • ودخلوها في جنح الظلام • فاستضاءوا بما أعلق من الضرام • وعاد ليله معدودة من الأيام • ووقعت النار في مخازن كتان واهراء غلال • فاحترقت أمتعة بأموال • وكبسوا رباعا وكسبوا متاعا • وأرهجوا وأوهجوا مرضا وضرما • وأحرجوا وأخرجوا نعما ونعما • وبقيت الدور فارغة شاغرة • وأفواه الأطماع الى ازدراد ماتحويها فاغرة • وتحصنت القومصية ست طبرية في قلعتها • ومعها بنوها وحموها بسيوفهم وعصموها • ووقع الاشتغال بحصارها • ونقب جدارها وطم جوارها • وفصم سوارها .

فجاء من أخبر بأن الفرنج قد بكروا وركبوا • وأجلبوا بخيلهم ورجلهم وتحربوا وتحزبوا وتصلبوا وصلبوا • وتعصبوا وتصعبوا • وثاروا وفاروا • ورازوا وزأروا • وجاءوا واجئين • بالفجائع ماجئين • وفي ليل القتام مدجين • وفي بحر اللام ملجين مدججين • والى حزب التوحيد بحزب التثليث مخرجين • ومن كل جبل تحرقه الريح • ومشيح شعاره المسيح • وذمر يخفر الزمان ويبيح ، ونصب الى الموت يستريح • ومشتاق الى ملاقاة المذون قد حثه التبريح • ومخرج الى التورط في الردى من هول ماهوله يصيح • ومرتجج يؤذسه المارق اللجج . ويوحشه الفضاء الفسيح • ومن كل بطل مكره • وحبل مد مده ، وقرم قرم • وضرغام ضرم • وكل معاند للبلاء معاق وكل حان لثمر العناء جان .